"فريدة" ورحلة المساء

المغرب يؤذن.. شيء ما وكز "فريدة"؛ فانتفضت في حماسة على غير عادتها المتبلدة تلبي النداء..

هي على أعتاب الخمسين.. فارعة, عريضة الجسد, مترهلة بأرطال من الشحم.. بطنها منتفخ مثل بطون "أورطة" من النساء في شهرهن التاسع, تتقدمها تشق لها الطريق مثل مقدمة سفينة تمخر في عباب البحر.. من ضخامة البطن والصدر دائما ما ينشلح الجلباب –الذي احتارت في نظمه خياطة القرية- فيبدو شالحا من الأمام مترهلا يجرجر من الخلف..

وجه "فريدة" مستدير متورد, ساحت ملامحه فبدت أشبه ببالون منتفخ, يتدلى من أسفله كيس دهني يزيد من غرائبية المرأة, ويبعث في النفس شيئا من الرهبة, وأيضا شيئا من الضحك, فهي تبدو في مشيتها التي تدب, وهي تعكر الجو بالتراب, بوحش هبط للتو من السماء ليحيق الدمار بأهل الأرض البؤساء..

ورغما عن كل شيء, وما فعلته السمنة من تضاريس وتكورات, وما توحي به هيئتها الضخمة من عنف وقوة شكيمة؛ فهي طيبة القلب تنطفئ سريعا مثلما تشب مثل الحريق سريعا..

مفتاح شخصية "فريدة" يملكه كل من يجيد خاصية الامتصاص, أولئك الذين لا يعبئون بفورتها الأولى, ولا بهبات الريح التي تعتريها بلا سابق إنذار.. فيما بعد ستبدو نادمة مثل طفل, تسح عيناها بالدموع مثل نهر تتفجر منابعه..

طبيعة خطواتها بطيئة متأنية, بيد أنها الآن في أوج نشاطها, تشبه قاطرة عجوز تبذل قصارى جهدها لتجر زخم العربات المتهالكة, ذات الإطارات الحديدية الصدئة على قضبان أكثر صدئا..

يفسح لها أبنائها الطريق, وعلى وجوههم ارتسمت ابتسامة من يعلمون بالأمر.. في الحقيقة الجميع يعلم.. فبخلاف أنه لا سر في الريف, فإن "فريدة" مثل شمس لا تغيب في القرية الصغيرة النائية.. النساء يفسحن لها الطريق, وهي تندفع من بيتها, خوفا من هرولتها الغير منضبطة, فجميعهن يعلمن كم الأمر جد خطير.. وعلى كلٍ, هن أيضا يعلمن أنه قد آن الأوان لمن ترغب في أن تحذو حذوها.. هي منبه يقظ لهن جميعا في هذا الأمر, لا يحيد برهة من زمن.. وقد تولدت علاقات, وتوطدت صداقات بينها وبينهن, فلا شيء يؤجج حميمية العلاقة مثل الأشياء المشتركة..

أخيرا تصل بغيتها وقد تهدجت أنفاسها. صدرها يعلو ويهبط وكأن صخرة "سيزيف" أنهكتها أثناء صعود الجبل المرير, في حين أن الأمر لم يستغرق أكثر من عشر دقائق من بيتها على أطراف القرية إلى بيت "العمدة" الفخيم في المنتصف..

طرقات الباب الملهوفة المتهافتة اقتنصت الابتسامة من الوجوه المقتضبة أثناء تناول العشاء.. مسح "العمدة" شاربه من آثار حساء العدس, بعدما دلق في جوفه نصف الإناء, قبلما يشير لابنه الصغير بالفتح..

مثل زوبعة مأمونة العواقب تدحرجت "فريدة" إلى صالة البيت.. وكأن البيت بيتها.. توجهت من فورها إلى مكان بعينه, وانكبت تفترش الأرض في دائرة تقترب من المتر قطرا.. رمقت التلفاز الأحمر الصغير بنظرة وله, قبلما تمد يدها السمينة وتشعل المفتاح..

التلفاز الأحمر الصغير هو الوحيد في القرية, اشتراه العمدة من نحو عام مخترقا به عالم الأساطير إلى واقع حي يروه جميعا مرأى العين..

يوم أن لفظ العمدة قطار الثانية, ومن خلفه شيخ الخفر, يحمل التلفاز على كتفه يوم مشهود.. بدا العمدة يومها مثل بطل أسطوري خارق أتى برأس التنين..

الانشراح ملأ وجهها عندما أشرقت المذيعة الجميلة على الشاشة الصغيرة, تزف نبأ موعد المسلسل.. وكأن المذيعة الفاتنة, تعلم بوجود "فريدة" على الطرف الآخر, وبشغفها المحموم..

مع "تتر المسلسل", عقل "فريدة" يسترجع الأحداث الفائتة, ليقف عند اللحظة الشائقة التي انتهت عندها حلقة الأمس..

هي الآن مشدوهة, لا تنتمي لكوكب الأرض, عيناها مصلوبة على الشاشة (الأبيض وأسود) ذات البوصات الأربعة عشر.. لحظات وتنضم إليها عصبة من نساء القرية, وقد أتوا من كل حدب وصوب, زرافات ووحدانا..